

ملف القدس

ما بين الأعيان والأوباش الرؤية الجوهريّة في تاريخ القدس الانتدابية*

سليم تمّاري**

اقتترنت أعوام الانتداب البريطاني على فلسطين في أذهان الأجيال التي عاشت تلك الفترة بتغيرات اجتماعية مكثفة طغت على قدراتنا على تشخيص ما حدث في نهاية الحكم العثماني للمنطقة.

واليوم تساهم المذكرات الجوهريّة المتعلقة بالفترة الانتدابية في إزالة الغمّة عن طبيعة هذه الحقبة، لأنها معاصرة للحدث، ولأنها تغلب الاجتماعي على السياسي. وهي تسلط الضوء تحديداً على السنوات "العتبية" الثلاث (1917 - 1920) التي تفصل سقوط الحكم العثماني في شتاء سنة 1917 عن بداية الانتداب البريطاني سنة 1921. نسميها "عتبية" لأنها تعالج تلك الفسحة من الحيز الذهني (العتبة) التي شاهدت الانتقال الاجتماعي نحو الحداثة، والتي اتسمت بتداخل التشكيلات الإدارية والهيكلية والأنماط السلوكية في منعطفين: تلك التي سادت في فلسطين العثمانية المتأخرة، وذرورة تبلور المؤسسات الحاكمة في فلسطين الانتدابية. أي أنها تبحث في تبلور بنى جديدة لم تتضح معالمها بعد، وحملت في طياتها إمكانات في التغيير وخيارات مستقبلية لم يخطط لها.

أمّا إنجازات الانتداب المكثفة التي انطبعت في وجدان جيل النكبة فهي كثيرة - وإن لم يكن ثمة إجماع عليها بين المؤرخين. فهي تشمل: استحداث مؤسسات الدولة الحديثة، بما فيها أجهزة الدولة المركزية في القدس؛ تحديث قانون الأراضي والنظام

(*) المصدر: ورقة قدمت في ندوة "المذكرات والسير الذاتية في تاريخ فلسطين وبلاد الشام"، التي عقدت في مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت بتاريخ 15 - 16 كانون الأول/ديسمبر 2004.

(**) أستاذ مشارك في علم الاجتماع في جامعة بيرزيت، ومدير مؤسسة الدراسات المقدسية (القدس).

الضرائبي؛ تطوير الجهاز القانوني والقضائي بدلاً من القوانين العثمانية السابقة؛ تطبيق بعض السمات الأساسية لقوانين المواطنة وأيقونات السيادة العصرية (صك العملة الفلسطينية، إصدار الطوابع البريدية وجواز السفر الفلسطيني)؛ تحديث الجهاز التعليمي بهدف توفير طاقم إداري لجهاز الدولة الكولونيالي؛ توطيد البناء التحتي للمواصلات والاتصال وتوسيعه، بما فيه توسيع شبكة الطرق المعبدة، وسكة الحديد، وإنشاء دار الإذاعة الفلسطينية سنة 1931 في القدس. كل هذا حدث في عقود ثلاثة قصيرة.

إن غياب الإجماع بين المؤرخين على أهمية هذه الإنجازات الانتدابية يعود إلى كون القسم الأكبر منها جزءاً من عملية الحداثة العثمانية التي بنى عليها النظام الانتدابي وليس نسقاً منقطعاً عنها. إلا أن التأثير الحاسم لهذه التطورات في فلسطين كان فصم فلسطين عن بلاد الشام من ناحية إدارية، الأمر الذي نجم عنه في النهاية تبعات اجتماعية وثقافية مهمة.

وقد ساهم واصف جوهري في مراقبة هذا التواصل وهذا الانقطاع من خلال مذكراته الرائدة للحدث. ونجد أهمية خاصة لهذا الرصد في نقل روح الانعتاق الفكري والاجتماعي الذي ساد في مدينة القدس وفلسطين عامة في السنوات الثلاث الأولى للحكم العسكري (1917 - 1920). نجد فيها أن واصف قد بلغ مرحلة النضوج في فنه وفي شخصيته الساخرة الناقدة. ومما ساعده في ذلك أنه تبوأ مركزاً حساساً في سلك الموظفين الانتدابي (في دائرة الأراضي)، وكان مراقباً حميماً لسلوكيات النخبة العربية المهيمنة بحكم علاقاته الشخصية بأل الحسيني وآل النشاشيبي، من دون أن يهمل علاقاته الحميمة بهموم الناس العاديين الذين نشأ بينهم. وفيها نستشف موقفاً مغايراً للتصور الذي يرى أن الحقبة العثمانية الأخيرة تشكل نقيضاً للفترة الانتدابية؛ فالأولى ترمز إلى الاستبداد الشرقي، والثانية ترمز إلى الحداثة. هنا، بالعكس، نجد رفضاً للافتراض الذي يرى في مؤسسات الاستعمار التحديثية بديلاً من النظام العثماني البائد، والذي يبرز الطابع الاستمراري لإصلاحات كان العثمانيون أدخلوها إلى فلسطين وبلاد الشام في نهاية القرن التاسع عشر من مدارس عثمانية، وإصلاح دستوري، وتخطيط مدني. وفي بعض القطاعات نرى أن النظام الانتدابي شكل تراجعاً عن الأوضاع التي سادت في الفترة العثمانية. نجد هذا التقهقر مثلاً في حالة تعزيز النظم الطائفية في أحياء البلدة القديمة من القدس، وفي تبني الإنكليز مبدأ الانتماء الديني كمؤشر إلى الهوية.⁽¹⁾ ويذكرنا جوهري بأن كثيراً من الإصلاحات الانتدابية كان الأتراك أدخلوه إلى فلسطين في الحرب العالمية الأولى. إلا أن كلاً من الكوارث التي رافقت الحرب، والظلم البشري الباهظ للتجنيد الإجباري (سفر برلك)، ساهم في تسميم

العلاقة بين الحكام العثمانيين ورعاياهم العرب، الأمر الذي طمس ومحى من الذاكرة العربية الجماعية أية سمات إيجابية للحدثة العثمانية.

من الملاحظ هنا أن فلسطين كانت أقل الولايات معاداة للعثمانيين على الرغم مما زُعم لاحقاً عن قياداتها المحلية. فحتى بعد إعلان الدستور الجديد سنة 1908، عندما بدأت التيارات الاستقلالية واللامركزية تظهر إلى جانب الحركات الانفصالية بين اليونان والأرمن، بقي الفلسطينيون في معظمهم موالين للعثمانيين. ويلاحظ المؤرخ عادل مناع أن فلسطين تميزت بين المقاطعات العربية بكونها الأقل حماسة للإصلاح الدستوري. ففي نابلس ومناطق شمال فلسطين، مثلاً، تظاهرت الجماهير تأييداً للسلطان وضد الإصلاحيين.⁽²⁾ إنما استطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تجد مساندة محدودة من النخبة السياسية في يافا والقدس فقط.⁽³⁾ ولم تبدأ التجمعات السياسية الفلسطينية الانضمام إلى التيارات القومية العربية بشكل ملحوظ إلا بعد تنحية السلطان عبد الحميد عن السلطة سنة 1907، وبدأت جمعية الاتحاد والترقي تبني سياسة التتريك في مرافق الدولة.⁽⁴⁾

تُستذكر الإدارة البريطانية فوق كل شيء كأداة واعية لإرساء دعائم الوطن القومي لليهود ونكبة سكان فلسطين سنة 1948. وتهيمن هذه الرؤية على تفسير جميع الأحداث اللاحقة، وتفسر لمدى بعيد الأسلوب المتحفظ في سرد مشاهد الفرح والاحتفالات الشعبية في شوارع القدس في أعقاب دخول جيوش الجنرال ألنبي وانسحاب الأتراك منها.

مدينة الحثالة والأوياش

نجد في مذكرات الكولونيل رونالد ستورز (1881 - 1955)، أول حاكم عسكري بريطاني للقدس، تعبيراً واضحاً عن أيديولوجيا ليبرالية رأت في فلسطين مرتعاً للتخطيط الكولونيالي، مع إحاطة واسعة ومتقنة بخلفية البلاد العثمانية والإسلامية. وتتقاطع هذه الرؤية بشكل غني مع مذكرات واصف جوهريّة الساخرة عن الفترة نفسها من خلال التقاء الاثنين في مشاريع "جمعية محبي القدس"، وهي المؤسسة التي أنشأها ستورز للحفاظ على تراث القدس المعماري والأثري، وتوفر لنا خطابين متباينين بشأن حدثة القدس في الفترة الانتدابية.

ثمة اعتقاد سائد - وإن كان مغلوطاً فيه - أن العثمانيين لم يساهموا بشيء يذكر في مجال التنظيم الحضري في المشرق العربي، وأن البريطانيين هم الذين أدخلوا مفاهيم التخطيط إلى فلسطين. تقول المؤرخة روث كارك في هذا المجال:



الكولونيل رونالد ستورز مع الشريف حسين في الحجاز
سنة 1917.

المصدر: Ronald Storrs, Orientations.

حتى نهاية العهد العثماني، لم يكن هناك أي مخططات للمساحات المدنية في القدس. وقد اقتصر عمل الباب العالي والسلطات المحلية على الإشراف على إدارة المدينة. ولأسباب أمنية تم تطبيق قانون عثماني يمنع بناء أية منشآت ضمن مساحة تقل عن 2500 فرسخ (نحو 1.4 كم). فمدينة عكا لم تتوسع خارج أسوارها حتى نهاية القرن الماضي. ولو طبق هذا القانون بحذافيره لواجهت القدس المصير نفسه.⁽⁵⁾

طبعاً لم يطبق هذا القانون "بحذافيره". فقد خضعت المدن الإقليمية العثمانية لدرجات متفاوتة من التنظيم الحضري، وخصوصاً الساحات العامة (دمشق، بيروت، يافا، حلب). وتميزت القدس بقوانين هيكلية متعددة بعد إصدار قانون البلديات سنة 1877، إذ قامت السلطة بوضع قيود تنظيم رخص البناء، ومواد البناء، وعلو المباني.⁽⁶⁾ أشارت المؤرخة هالة فتاح إلى أن "زيادة الاهتمام بالنمو الحضري في القدس، واتساع شبكة الاتصالات، فرضاً أنفسهما على السلطات العثمانية، وأصبح التخطيط لنمو مدينة القدس، في أواسط القرن التاسع عشر، من أولويات عملية مركزية السلطة العثمانية في فلسطين. وقد نجم عن إنشاء دار البلدية والمجلس البلدي تفعيل الحياة السياسية في القدس."⁽⁷⁾

من معالم التنظيم العثماني المدني في تلك الفترة كان إنشاء النصب التذكارية في الساحات العامة سنة 1901 احتفاءً بالعيد الخامس والعشرين لتولي السلطان عبد الحميد الثاني العرش. وأصبحت هذه النصب ذات الأبراج وساعاتها معالم تاريخية في ساحات مدن إقليمية، مثل إزمير وطرابلس ويافا والقدس. وثار جدل في شأن برج القدس (باب الخليل) لاحقاً عندما قامت سلطات الانتداب بتدميره "لأغراض جمالية" سنة 1918 (كما سيأتي أدناه). وقد تميزت القدس من باقي هذه المدن الإقليمية بأن قاعدتها الاقتصادية كانت تركز بشكل أساسي على الوقفيات الدينية والنشاطات

المتعلقة بخدمة الحجاج. وقد نسب قول إلى السير تشارلز أشبي، مستشار "جمعية محبي القدس" في الشؤون المدنية بعد الحرب، بأن المدينة المقدسة كانت "تعيل قطاعاً واسعاً من السكان الطفيليين - من كهنة وحنوتيين ورهبان ومبشرين ونساء أتقياء، وكتبة ومحامين وجمهور من الحثالة والأوباش - وجميعهم لهم مصلحة ثابتة في الإبقاء على الأمر الواقع."⁽⁸⁾ ويستنتج من النبذة الساخرة لهذا الوصف أن المستهدف منه في تصور أشبي، ذي النزعة الاشتراكية، هو على الأرجح الطبيعة الراكدة وغير المنتجة لاقتصادات المدينة، وليس الشارع المقدسي.

بالإضافة إلى المنشآت العثمانية التابعة للبلدية والتكايا الوقفية، ظهرت أول مبان حديثة في البلدة القديمة في الأربعينيات من القرن التاسع عشر على أيدي الإرساليات الإنكليزية والألمانية البروتستانتية. أما خارج البلدة القديمة فكان أول المباني العامة المجمع الروسي الضخم المعروف بالمسكوبية في الخمسينيات من القرن نفسه. ويرجع المؤرخ الألماني ألكسندر شولش إلى هذه المشاريع الثلاثة موجة التحديث العمراني في القدس العثمانية، والتي شملت كثيراً من "المباني الجديدة للكنائس والأديرة والأنزال (الهوسبيسات) والمدارس والمستشفيات والفنادق والقنصليات وتغييرها وتوسيعها [والتي] استمرت فيما بعد دون نقصان."⁽⁹⁾ تبع هذه الحركة المعمارية إنشاء الأحياء الجديدة لأعيان المدينة من المسلمين خارج الأسوار في الشيخ جراح وباب الساهرة وسعد وسعيد في العقد السابع من القرن، والأحياء الجديدة لليهود في يمين موشيه ومناه شعاريم في الفترة نفسها.⁽¹⁰⁾

ولا شك في أن مشاريع البناء العثمانية، كما هي الحال مع قوانين البناء والتنظيم الرسمية، كانت موجودة لكنها كانت عشوائية، وسرعان ما تم تهميشها بفضل الحجم الهائل للنشاطات الوقفية الدينية والاستثمارات الأجنبية وحركة البناء العائلية الخاصة. وتقول المؤرخة كارك، في هذا المجال، "إن التخطيط المدني في القدس العثمانية كان موجوداً، لكن لم يتم تنفيذه في الغالب، ولو جزئياً، إلا في العشرينيات من القرن التالي."⁽¹¹⁾ وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن القول إن مشاريع تنظيم المدينة اللاحقة - في فترة الحكم العسكري وبداية الانتداب - كانت في معظمها مبنية على هذه الرؤية العثمانية.⁽¹²⁾

على هذه الخلفية أنشأ الكولونيل ستورز سنة 1918 "جمعية محبي القدس" - وهي مشروع طموح هدف كما أسلفنا إلى الحفاظ على مباني القدس التاريخية وإعادة إحياء المدينة اقتصادياً. كانت الأهداف المعلنة للجمعية هي "الحفاظ على آثار المدينة المقدسة وتطوير وظائفها الثقافية، كالمتاحف والمكتبات والمسارح إلخ، ودعم التعليم والرفاه الاجتماعي لسكان المدينة."⁽¹³⁾ استطاع ستورز أن يجند مجموعة كبيرة من نخبة المدينة في مجلس إدارة الجمعية، منهم: رئيس البلدية موسى كاظم الحسيني، ومدير دائرة الآثار، والمفتي كمال أفندي الحسيني (تبعه في المنصب لاحقاً الحاج أمين الحسيني)، والحاخامان الأشكنازي والسفارادي ليهود فلسطين، ثم البطاركة الثلاثة الأورثوذكسي واللاتيني والأرمني، ومطران الطائفة الأنغليكانية، وغيرهم من وجهاء المدينة.⁽¹⁴⁾ والملاحظ في هذا الاختيار هو تصور معين لدى ستورز للمجتمع الفلسطيني في بداية الانتداب، وكأنه مركب من زعماء الطوائف الدينية بالإضافة إلى أشرف المدينة وأعيانها، وهي رؤية تتعارض مع التغيير الناجم عن تبلور مجتمع وحركة قومية ونخبها المثقفة علمانياً.

ومع أن الكولونيل ستورز كان صاحب فكرة الجمعية، فإن التخطيط المدني للقدس في تلك الفترة ارتكز على مساهمة أساسية من مهندسين رائدين في القدس الانتدابية هما وليم ماكلين وتشارلز أشبي. كان الأول، ماكلين، المخطط المدني لمدينتي الإسكندرية والخرطوم في مطلع القرن العشرين، واستدعاه ستورز سنة 1918 لوضع أول مخطط هيكلية لمدينة القدس في فترة الحكم العسكري. واستطاع - بحسب التقارير - أن أكمل ملامحها سنة 1922.⁽¹⁵⁾ اعتبر مخطط سمات هذا الجديد داخل شريط حول بحيث تمت إزالة وسمح بترخيص والغربي فقط من المباني فيهما كي لا تحجب منظر المدينة،



تشارلز أشبي (1863 - 1942)، مؤسس "جمعية محبي القدس".



شعار "جمعية محبي القدس" كما صممه
آشبي، وهو يعكس تصوراً كولونيالياً
لفلسطين كمجتمع طائفي.

جميع المباني ومنعت المنشآت الصناعية.⁽¹⁶⁾ وهي إجراءات كانت صدرت في العهد العثماني قوانين بحظرها لكنها لم تطبق إلا في فترة الانتداب.

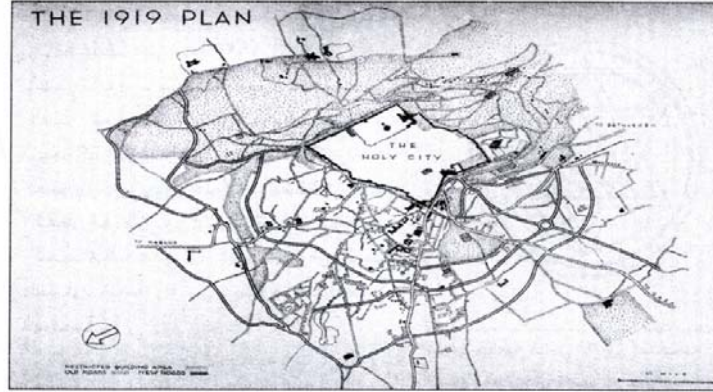
أمّا المهندس الثاني، تشارلز آشبي (1863 - 1942)، فكان أكثر من ساهم في رسم التصور العام لمستقبل القدس الجديدة/القديمة من منطلق يوتوبي. وكان من أتباع الفنان والكاتب الاشتراكي وليم موريس، وانتمى إلى جيل من المفكرين الرومانسيين والراديكاليين الذين

وجدوا أنفسهم في خدمة المشروع الكولونيالي البريطاني. ومع أن الكولونيل ستورز كان استدعاه لإحياء الصناعات الحرفية في فلسطين إلا إن آشبي سرعان ما تجاوز هذه المهمة المحدودة في عمله.⁽¹⁷⁾ وكان منصبه الرسمي في الحكم العسكري هو "المستشار المدني" للحاكم، وهي وظيفة حافظ عليها حتى سنة 1922. الأهم من ذلك أن آشبي احتل منصب سكرتير "جمعية محبي القدس" ثم منصب المنسق العام لها، وفيها لمع نجمه إذ استطاع - بناء على علاقته المتينة بستورز - أن يبلور حلاً لـ "مشكلات المدينة العصرية، من دون أن يتخلى عن مخططات المحافظة على الطابع المعماري للبلدة التاريخية، وعلى خصوصية الأماكن المقدسة."⁽¹⁸⁾

استطاع آشبي أن يجمع بين الرؤية الرومانسية لـ "النموذج الشرقي" للمدينة وبين التخطيط العملي لمتطلبات المدينة اليومية. وكان هاجسه القاعدة غير المنتجة للمدينة. ففي تقرير الجمعية لسنة 1920، أشار آشبي إلى الكم الهائل من سكان المدينة الطفيليين الذين يعتاشون من الإعانات والوقفات (راجع الإشارة أعلاه، ص 111)، واقترح تغيير الهيكل التوظيفي للاقتصاد عن طريق إنعاش حرف تقليدية في قطاع البناء، ضمنها النسيج وصناعة البلاط (وقد جلب خرفيين مهرة للتدريب من مدينة كوتاهية في الأناضول) والزجاج التقليدي (من الخليل). ومن مشاريعه الناجحة في تلك الفترة: ترميم سوق القطنين وإحيائها في البلدة القديمة؛ تجديد قيشاني قبة الصخرة مع دائرة الأوقاف؛ ترميم مسارات أسوار المدينة التي بناها سليمان القانوني في القرن السادس عشر؛ ترميم قلعة البلدة القديمة في باب الخليل. ورافق هذه المشاريع جميعاً إنشاء وحدات تدريب في الحرف التقليدية. وكان ستورز نظم احتفالاً سنوياً للفنون التابعة لهذه المشاريع في مبنى قلعة داود سمّاه "الأكاديمية"، حيث

كانت تقام دورياً معارض للفنون الإسلامية وللحرف الفلسطينية ولمجسمات تخطيط المدينة.⁽¹⁹⁾

كانت معضلة أشبي الرئيسية التوفيق بين رؤيته الرومانسية لمستقبل المدينة وبين توجهاته الترميمية المحافظة. وقد عالج هذا التناقض، بحسب المؤرخ إنبال غيتلر، عن طريق تقسيم المدينة إلى منطقتي تخطيط متميزتين: الأولى كانت منطقة البلدة القديمة داخل الأسوار، التي رأى فيها من منطلق علماني "معلماً تاريخياً مخصصاً للمحافظة الأثرية"، وكأنه متحف ضخم. والثانية البلدة الحديثة في شمال المدينة وغربها، التي تم تطويعها للنمو والتنمية الحديثة.⁽²⁰⁾ وصل أشبي بين هاتين المنطقتين بشبكة من الحدائق والجنازير في محاذاة أسوار المدينة وحولها، مستخدماً مفهوم "الحديقة الإنكليزية العامة" والكيوسكات التركية. وكان الهدف من هذا الوصل الحفاظ على تواصل المدينة مع تخومها الريفية والزراعية. وكي يحقق ذلك لجأ إلى "تكتيف زراعة النباتات الأليفة لهذه المنطقة، وأبقى على الحدائق العامة في حالتها الطبيعية من ناحية، وأحى نباتات وأشجاراً زالت من الوجود، من ناحية أخرى."⁽²¹⁾ في الحصلة كان التخطيط المدني للقدس عند أشبي مزيجاً من التناقضات حاول من خلالها أن يجمع بين رؤية استشرافية للمدينة المقدسة وبين إحياء عملي لحرف المدينة وصناعاتها التي دمرها الاستيراد.



أول تخطيط هيكل لمدينة القدس لوليم ماكلين سنة 1919.

المصدر: Henry Kendall, Jerusalem: The City Plan....

وشاء القدر أن يدخل على هذا المشهد واصف جوهريّة. كان واصف يعمل خلال الفترة نفسها في الجهاز البيروقراطي للحكم العسكري في قسم التحريرات. ولفت عظه على العود انتباه الحاكم الكولونيل ستورن، الذي كان بدأ إلمامه بالموسيقى الشرقية خلال إقامته بالقاهرة. فبادر ستورن إلى تكليف واصف العمل كمساعد لتشارلز أشبي في بداية إنشاء مجلس إدارة "جمعية محبي القدس".

أشار واصف، بحكم منصبه الجديد كمساعد لأشبي، إلى أول مواجهة حدثت بين

مجلس بلدية القدس و"جمعية محبي القدس" بشأن تخطيط المدينة الحديث. ففي سنة 1901 كانت السلطة العثمانية أمرت ببناء برج الساعة الشهير داخل ساحة باب الخليل في المدخل الغربي للمدينة، خلال رئاسة فيضي أفندي العلمي لمجلس البلدية، وذلك احتفالاً باليوبيل الخامس والعشرين لاعتلاء السلطان عبد الحميد للعرش (راجع أعلاه). وكلف تصميم هذا النصب التذكاري المعماري بأسلوب "الباروك" باسكال أفندي ساروفيم، مهندس البلدية حينذاك.⁽²²⁾ وحين استلم أشبي أعمال الجمعية اتخذ قراراً بإزالة النصب وتدميره لأنه، وفق رواية واصف، "كان يتعارض مع رؤياه للطابع التاريخي لسور المدينة." وفعلاً، تمت إزالة النصب ذات مساء على الرغم من معارضة المجلس البلدي. أمّا واصف فيخبرنا أنه كان يتفق جمالياً مع قرار أشبي. "كان برج الساعة نصب مهجن من عدة أنماط معمارية ذكرني بموسيقى عبد الوهاب عندما كان يلحن بالطريقة الفرانكو - أراب. بالرغم من ذلك كنت أعتقد أنه كان الواجب أن ينقل البرج إلى موقع آخر [بدلاً من تدميره]، ربما إلى مبنى البلدية الجديد بمحاذاة بنك باركليس."⁽²³⁾ وبعد أعوام أوصى واصف بتصميم نموذج خشبي لبرج الساعة العثماني مع ساحته، وذلك كي يتسنى للأجيال اللاحقة أن تأخذ فكرة عما كانت عليه إحدى ساحات القدس العثمانية قبل أن تغير سلطات الانتداب البريطاني معالمها، ووضعه في متحفه الخاص في بيت النيكفوروية.⁽²⁴⁾

أمضى واصف عدة أشهر بصحبة أشبي وريتشموند في أعمال الترميمات الميدانية في منطقة الحرم الشريف، وفي إصلاح سور المدينة. وعن هذه الجولات الميدانية يخبرنا التالي:

وقد دأب المستر ريتشموند على الإشراف على مسجد الحرم الشريف الأقصى والصخرة المشرفة وأشرف المستر أشبي "المعماري الشهير" بصفته المستشار الفني كما كانوا يقبونه آنذاك Civic Advisor على المحافظة على سور المدينة فقد رسم سور المدينة بصورة مرضية وأقام قضيب حديدي على الطرقات المخصصة على حافة السور من الداخل وبهذا العمل استطاع السائح أن يمشي على أقدامه بسهولة مستعيناً بهذا (الدرابزين) ويشاهد المدينة المقدسة من الداخل وخارج السور. اشتغلت كاتباً في هذه الجمعية تحت رئاسة المستر أشبي واطلعت على كثير من روعة وأثار المدينة المقدسة والحرم الشريف والجدير بالذكر أن جورج الشبر المهندس المعماري الذائع الصيت والذي أصبح زمن الانتداب البريطاني من أغنياء القدس المعروفين كان يشغل موظفاً فنياً بصحبة المستر ريتشموند في إدارة إصلاحات الحرم الشريف وإني أحتفظ بصورة تاريخية وهو أي جورج الشبر معنا بارزاً كموظف لحكومة

فلسطين. لم أستطع البقاء كموظف تحت رئاسة المستر آشبي لكثرة أشغاله وهكذا عندما كنت على جانب من الحظ في ليلة من ليالي الشتاء دخلت قلم التحريرات الـ Registry فاستقبلني الزملاء كالعادة بالمرح والضحك وأخذ الحظ مني مأخذاً فصعدت أمشي على طاولات المكتب وإن دخل فجأة المستر آشبي يبطلق بنظره علي.. أما أنا فقد بادرت بأعلى صوتي هلو هلو بالمستر آشبي.. وهات يا ضحك من الزملاء فخرجت تواءاً إلى مكتبه غاضباً وكتب رابوراً بحقي وكانت القاضية وبالاختصار نقلت إلى قلم الترجمة وتخلصت من غلبته التي كانت لا تطاق وشكرت الباري على النتيجة. كانت وظيفتي والحق يقال تحت رئاسة المستر آشبي إفادة كبرى مما زادت معلوماتي بالآثار النادرة والأبنية التاريخية بالقدس التي جعلتني ولوعاً في اقتناء التحف.⁽²⁵⁾

يصر واصف في مذكراته على أن فصل آشبي له عن العمل لم يخفف إعجابه به وبعمله. وفي هذا التعليق يميز صاحب المذكرات بين حكمه على الكولونيل ستورز ("المستشرق الاستعماري المحنك") وبين تشارلز آشبي، الفنان والمهندس والمخطط. تساعدنا المذكرات الجوهرية على قراءة جديدة للتاريخ الانتدابي للمدينة، لا لأنه كان شاهد عيان على أحداث هذه الحقبة الحاسمة فحسب، بل أيضاً لأن روايته تقوض الافتراض الشائع عن تزمين مصطنع يجعل نهاية الحرب العظمى الحد الفاصل بين عصر التخلف وعصر الحداثة في فلسطين. والتميز الأكثر ملاءمة هنا يميز حداثة فلسطين في ثلاث حقب متقاربة ومتسارعة: انهيار الحداثة العثمانية نتيجة قساوة الحرب وما رافقها من ويلات اجتماعية؛ فترة الحكم العسكري العتبية (1917 - 1920)، وهي فترة "الفوضى الإيجابية"؛ تبلور سياسة الانتداب المتمحورة حول بناء الدولة الكولونيالية وتنفيذ بنود وعد بلفور.

أهازيج المجاعة

كانت الأعوام الثلاثة السابقة لسقوط القدس من أحلك وأقسى الحقب التي مرت المدينة بها، إذ تضافرت قسوة الطبيعة مع الحرب والمجاعة على أهل المدينة. ففي سنة 1915 بدأ الأسطول البريطاني ضرب مدن الساحل الفلسطيني، وتم تهجير قسم كبير من الناس إلى القرى والمدن الداخلية، بما فيها القدس.⁽²⁶⁾ ورافق ذلك بداية التعبئة في الجيش العثماني، وإرسال أبناء فلسطين إلى الجبهة الأمامية حيث هلك الآلاف منهم، وقمع الحركة الوطنية، والتنكيل بأتباع التيار اللامركزي من العرب والأقليات الأخرى. ثم بدأت المجاعة في لبنان، وانتقلت منه إلى مدن سورية وفلسطين. لم تكن المجاعة نتيجة القحط، وإنما جاءت بعد أن بدأ الجيش الرابع، بقيادة جمال باشا،

مصادرة القمح والحنطة لمصلحة الجيش في ربيع سنة 1916. لدينا وصف لشاهد عيان من القدس، هو الدكتور عزت طنوس، الذي كان طالباً في كلية الطب ثم تجند في الجيش العثماني في بيروت، على تأثير المجاعة في الحياة اليومية. يقول: "كنت أمر يومياً انطلاقاً من الثكنة العسكرية في رأس بيروت إلى ساحة البرج في مركز المدينة. وكان من المشاهد المألوفة في أثناء مروري رؤية عشر أو خمس عشرة جثة ملقاة على أرصفة الطرق كل يوم، تنتظر أن تأتي عربة البلدية لتنقلها إلى حيث تدفن. وصرت معتاداً القفز فوق هذه الجثث كي أتفادي التعثر بها. الأطفال الصغار يبكون ليلاً نهاراً، وتسمعهم من النوافذ: (جوعان..... جوعان). ثم تراهم يركضون نحو القمامة لعلهم يعثرون على ما يأكلونه. كانت كثيرات



الشيخ عمر البطش (١٨٨٥ - ١٩٥٠).
معلم العود لواصل جوهريه وشريكه
في تلحين طقطوقة الكرشات.

من النساء يتركن أطفالهن الرضع عند أبواب المستشفى في الليل كي يطعمهم الممرضون في الصباح.⁽²⁷⁾ وكان المجاعة لم تكف، إذ جاء الجراد عام 1915/1916 ليقتضي على المزروعات، فانتشرت الأوبئة ومات عشرات الآلاف من الناس.⁽²⁸⁾

في القدس أصبح الافتقار إلى المواد الغذائية هاجس الناس، واقترن ذلك في أذهانهم بعملية التجنيد وغياب الشباب. يخبرنا واصف جوهريه، بأسلوبه الساخر، كيف كان هؤلاء الناس يستحضرون في أغانيهم الشعبية الأطباق الشهية التي خلت حياتهم منها. وقد ساهم هو بإحدى أهم هذه الأغاني من تأليفه وتلحين الموسيقار الحلبي الشيخ عمر البطش، معلمه في الجوقة الموسيقية التابعة للجيش العثماني:

أنشودة المجاعة⁽²⁹⁾

كرشات محشيه بيضات مشويه يا سمك مقلي والعرق جنبي
بادر واشرب واسكب واشرب وغني واطرب
واعلم أن السكر مجرب ما على الإنسان من مهرب
فالسكر أنفع منه لا تفزع

دور

قبوات مقلية كبه باللبنية يا جزر محشي أقم في كرشي
كوسا بلحمه كشكه بشحمه كوسا بلحمه كشكه بشحمه

يخني بتنجان مع رز مفلفل

يا كنافه لا تغيبي أبدأ عني يا مهلبيه إنت منيتي وقصدي
يا هريسة اللوز إنت أفخر المأكول

بعد المحاشي



فستق بندق طقش فقس عبي الأركيله وحشش

وعن القطايف فتش بعدها أسنانك نكش

آكل هالألوان لازمله حمام

وكان واصف أدى هذه الأغنية أول مرة في احتفال أقامه متصرف القدس لنخبة من الضباط العرب والأترك خلال الحرب. ويقول في هذا المجال: "كنت طوال الحفلة وأنا أفكر بأوضاع أهلي وأصدقائي في الخارج، الذين كانوا محرومين ليس فقط من تناول هذه الأطعمة، وإنما أيضاً من مجرد النظر إليها."⁽³⁰⁾

من المفارقة أن "أنشودة المجاعة" هذه كان لها أثر سحري في خيال المجتمع المقدسي. فقد بدأ الناس ينشدونها في الشارع كأنها طقس من طقوس استحضار المحاشي الشهية التي اختفت من حياتهم، ورافقها موقف مستهزئ ورافض للانضمام أمام الموت والدمار. واستمرت هذه الأغنية في الانتشار حتى أصبحت ما يشبه النشيد الوطني لعدة أعوام بعد الحرب.⁽³¹⁾

وعلى الرغم من الدمار الذي أصاب البلد، وربما بسبب هذا الدمار، فقد أصبح في إمكان بعض المفكرين الناقدین أن يروا في هذه الأعوام الحرجة - أعوام الحرب - مرحلة انعطاف تاريخية في حياة المجتمعين الفلسطيني والسوري. كتب محام مقدسي معاصر لهذه الأحداث، مشيراً إلى تأثير الحرب وهجرة الناس في تغيير النسق القيمي للحياة اليومية: أهل الريف يزورون المدينة بانتظام، ظهور المقاهي وثقافة الترفيه في

المدن، دخول النساء إلى المدارس وبداية نزع النقاب عن وجوههن.⁽³²⁾ وكان الإطار الأوسع والمرافق لهذه التغييرات الاجتماعية تراجع الانتماءات الدينية (الطائفية) والانتماءات المحلية، وهيمنة التيار القومي العربي والسوري.

فوضى في الشارع

تظهر أعوام ما بعد الحرب في يوميات واصف جوهرية الانتدابية كأنها ثلاثة أعوام من الفوضى، في حياته الشخصية وفي فلسطين إجمالاً، وكأن الانسياب العام في أوضاعه الخاصة كان انعكاساً لتردي أوضاع الوطن. مع ذلك فالفوضى هنا كانت فترة تجلت فيها أشكال متنوعة من الانعتاق والحرية العامة.

يستذكر واصف هذه الأعوام الأخيرة بشغف لأنها كانت آخر أعوام العزوبية قبل أن يتزوج ويستقر. وقد صدف أنها بدأت بوفاة حاميه ومستخدمه رئيس بلدية القدس، حسين أفندي الحسيني. وهو يصف حاله في تلك الفترة بـ "الفوضى في حياتي الشخصية." يقول: "بعد وفاة المغفور له حسين أفندي بصفته الوالد الثاني لم يعد لي أحداً يرشدني في هذه الحياة. ونظراً لميلي الفطري للموسيقى التي احتازت أكبر قسم من حياتي، وبعدهما أنهيت واجبي في خربة دير عمرو كما وعدت حرم حسين أفندي السيدة أم سليم أصبحت متشرداً في هذه الحياة بصورة أعتبرها بكل تأكيد فوضى. فكنت أقضي معظم أوقاتي إن كانت ليلاً أم نهاراً وأنا في حالة غيبوبة من الحظ المتواصل. فمن سهرة للصباح ثم نوم في النهار وبعده سهرة متصلة بشطحة في إحدى القرى من قضاء القدس. ولم أكن أكثرث بأي أحد ولا مسؤولية ما. ولا أذهب لبيت والدتي إلا لتغيير هدومي ليس إلا. فأنام في بيت الأصدقاء والخلان وهكذا إلى أن تعب جسمي وأنهكه السهر والسكر فتارة أكون في سهرة في محلة باب حطة، وعند الصباح أكون في شطحة ضمت أرقى العائلات وأعيان القدس، ثم جلسة خاصة في بيت من زوايا القدس مع من يدعوهم القبضايات أو الزعران."⁽³³⁾

استنزفت هذه الفترة الإباحية معظم سنة 1918 والسنة التي تليها، وعكست أجواء اجتاحت الحياة اليومية في المدينة عامة. ويزودنا واصف بلمحات كثيرة عن احتفالات عامة في أزقة البلدة القديمة وخارجها، اتسمت بالمسيرات الموسيقية، و"الهيصات" التي رافقها الاستهلاك العلني للخمر. في إحدى هذه المناسبات، والتي شارك فيها - بحسب الرواية - مئات من المحتفلين، بدأت المسيرة من باب العمود، ثم انتقلت إلى المصراة فالمجمع الروسي (المسكوبية)، وعودة إلى البلدة القديمة من باب الخليل، ثم إلى الهوسبيس النمساوي، انتهاء بحي الشيخ ربحان في محلة السعدية.⁽³⁴⁾

يقول واصف جوهرية، في نهاية وصفه لذلك اليوم المشهود في تاريخ القدس:

"كانت ليلة من العمر ولم يزل يذكرها المعارف والجيران وجميع سكان تلك الأحياء من عقبة المفتي إلى الشيخ ربحان. هذه هي حفلاتنا في الزمن القديم وهذا هو وصف متواضع لما كنا نقوم به ولا أدري لماذا؟" ويجب عن تساؤله: "الجواب بسيط جداً وهو تعطش الأهلين إلى البهجة والسرور بعدما لاقوا من الإهانة والمرض والجوع والتشتيت زمن الحرب العظمى زمن الظلم، فعندما احتلت بريطانيا البلاد تنفسنا الصعداء قليلاً ولكن مع الأسف لم تكمل هذه الفرحة بل واجهنا مصيبة هي أشد وأبلى من زمن الأتراك وهي ضياع الوطن العزيز بأسره بواسطة المحتلين الإنكليز".

سرعان ما وجدت هذه الاحتفالات الشعبية تعبيراً مكانياً لها من خلال افتتاح العشرات من المقاهي والملاهي في مركز المدينة وأطرافها، حيث أمكن للمقدسيين التجمع في أوقات فراغهم لسماع موسيقى الغرامافون، وتناول المشروبات، وتدخين النارجيلة.⁽³⁵⁾ برزت شهرة مقهيين في هذه الفترة: "مقهى العرب" في عين كارم (وصاحبه أبو العبد عرب) الذي كان يستقبل الزوار طوال الليل؛ مقهى وبار الجوهريّة، الذي كان يستقبل الفنانين الزوار والمغنين والمغنيات من القاهرة والإسكندرية وبيروت.⁽³⁶⁾

في الأعوام الأخيرة من الحكم التركي بدأ كثير من الجمعيات السرية المناوئة للسلطة بالظهور إلى العلن. ومن أهم هذه الحركات كانت "جمعية الإخاء العربي" التي تأسست في إستانبول سنة 1908 بعد إعلان الدستور؛ الجمعية القحطانية وتأسست في إستانبول سنة 1909؛ الجمعية العربية الفتاة (1912) ومركزها بيروت؛ جمعية العلم الأخضر وتأسست في إستانبول سنة 1912.⁽³⁷⁾ وفي فلسطين كانت أهم هذه الجمعيات "المنتدى الأدبي"، الذي كان من أبرز أعضائه فخري النشاشيبي (من قادة حزب الدفاع لاحقاً)، وصليبا الجوزي (أخو بندلي الجوزي، المؤرخ الماركسي)، و خليل السكاكيني، وموسى العلمي، وإسعاف النشاشيبي.⁽³⁸⁾

وكان حزب الصعاليك، الذي أسسه خليل السكاكيني خلال الحرب العظمى، مجموعة أخرى مماثلة للمنتدى الأدبي في كونها سياسية أدبية (أو ربما سياسية بوجهة أدبية) ضمت كثيرين من رواد الحركة النهضة من يافا والقدس، أمثال نخلة زريق وعادل جبر والإخوان عيسى العيسى وداود العيسى، مؤسسي جريدة "فلسطين" سنة 1909. أما المنتدى الأدبي فقد تحول لاحقاً إلى نواة الجمعيات المسيحية - الإسلامية خلال فترة الحكم العسكري. ويوفر لنا واصف جوهريّة شهادة عيان على مهرجان جماهيري عقد في بداية سنة 1918 خارج باب الخليل خاطب المجتمعين فيه فخري النشاشيبي وصليبا الجوزي اللذان هاجما وعد بلفور ودعوا إلى الوحدة

(39) السورية.

الحكم العسكري: مومس في البيت!

تلقي المذكرات الجهرية أضواء جديدة على طبيعة السنوات الانتقالية الحاسمة التي تلت الحرب العظمى (1917 - 1921)، والتي لم يكن مصير مستقبل فلسطين قد حسم خلالها. تميزت هذه السنوات بالعتبية الثقافية، إذ انهار النظام العثماني عسكرياً وسياسياً، لكن الحكم الكولونيالي البريطاني لم يكن قد وطد مؤسساته بعد. "عشنا في دولة من الجهل" - صرح لاحقاً الكولونيل ستورن، حاكم القدس العسكري - و"كلمتي كانت القانون".⁽⁴⁰⁾ تم تعليق العمل بجميع القوانين المدنية لمصلحة الأحكام العرفية التي أصدرتها قيادة الحكم العسكري، بإدارة الجنرال موني. مرت فلسطين بفترة، وفق كلمات مؤرخة الفترة الانتدابية بيان نويهض الحوت، "لم يكن هناك [فيها] محامون ولا قضاة ولا محاكم ولا صحف."⁽⁴¹⁾

وبقي القسم الشمالي من فلسطين تحت سيطرة بقايا الجيش التركي والسلطة العثمانية حتى نهاية سنة 1918. ودعم الإنكليز في هذا القسم مجموعات المقاومة باسم الشريف حسين ضد الجيش العثماني المتقهقر. لكن حتى بعد هزيمة الأتراك وهيمنة الحكم البريطاني على الأراضي الفلسطينية كافة، بقيت الحدود بين فلسطين وشرق الأردن ولبنان وسورية في وضعها "العثماني" المنفتح. أي أن حركة المرور بين هذه المناطق الشامية لم تخضع بشكل مفاجئ لتقييدات الأوراق الرسمية والجوازات، إلى أن بدأت الجمارك والشرطة الفرنسية والشرطة البريطانية تنفيذ الأحكام الصارمة للحدود الجديدة من أجل ضبط تهريب الدخان والبضائع، ثم ملاحقة الثوار في أواسط الثلاثينيات.

سمح هذا الفراغ القانوني للأرياف بتقوية القوانين العشائرية والعرفية. أمّا في المدن الكبرى فقد عزز مكانة كبار الضباط والقضاة المعينين - من إنكليز وفلسطينيين - وأعطاهم صلاحيات واسعة للتصرف في تطبيق القانون المحلي وفق ما يرتؤون. وفي الإمكان معاينة هذه الصلاحيات الواسعة من خلال عدة قضايا مدونة عن الفترة 1919 - 1920 في محكمة الصلح في القدس، حين كان القاضي الرئيسي فيها محمد يوسف الخالدي (الذي عرف بنزاهته وأطواره الغربية). ففي إحدى هذه القضايا عالج الخالدي حالة مومس من البلدة القديمة جاءت في قضية "تعزيز صفو الأمن وإحداث الفوضى". ويبدو أن القاضي كان لا يزال في وضع متوعك عندما أحضرت المرأة أمامه وهي تقاوم وتصرخ.

القاضي محمد الخالدي: "اسكتي... سكري تمك... يا شرموطة!"
 لم تتحمل المومس الإهانة فأجابته على الفور: "أنا يا سيدي إذا كنت كما
 تقول (شرموطة)... أكون في بيتي وليس في محكمة الدولة!"
 القاضي الخالدي (في حالة تراجع): "صح. معك كل الحق".
 ثم التفت إلى رئيس كتبته المدعو جمال الصلاحي
 وقال له: سجل دعوى الآن:
 المدعي: فلانة بنت فلان.
 المدعى عليه: القاضي محمد يوسف الخالدي.
 الدعوى: إهانة.

الحكم على المدعى عليه: دفع جزاء خمس ليرات فلسطينية.
 ثم أخرج من جيبه المبلغ ودفعه إلى كاتب المحكمة. وهذا بدوره أحاله إلى
 الخزانة وجلب الإيصال باسمه حسب الأصول وسلمه إلى القاضي الذي ختم
 الدعوى المقامة عليه واعتذر إلى المومسة.⁽⁴²⁾
 من السمات الأخرى لهذه الظاهرة العتبية، الطابع "الرخو" للحدود الجديدة مع كل من
 لبنان وسورية والأردن الذي أشرنا إليه أعلاه، والذي عكس استمراراً ثقافياً لوحدة
 المناطق الشامية في النظام العثماني المنصرم.
 في صيف سنة 1922 قرر واصف أن يمضي إجازته مع أخيه خليل في ربوع
 سورية ولبنان مروراً بالحدود الجديدة في شمال فلسطين. وكان أخوه خليل خدم ثلاثة
 أعوام من الحرب جندياً في الجيش العثماني في بيروت. ونراه يدون حادث عبوره
 الحدود مع لبنان من خلال مركز رأس الناقورة من دون أي التفاتة، وكأنه يمر من
 منطقة إلى أخرى داخل البلد نفسه.⁽⁴³⁾ وفي أثناء ثلاثة أعوام يمر واصف بالمنطقة
 الحدودية نفسها في زيارة للبنان - هذه المرة مع عروسه فكتوريا بالسهولة
 والانسيا ب أنفسهم؛⁽⁴⁴⁾ وهذه هي بالذات المنطقة الحدودية التي ستتحول إلى نقطة
 عبور دولية شديدة الإحكام بعد عشرة أعوام من هذه الحادثة.
 يصور هذان الحدثان حالة التسرب - بل السيولة - التي اتسمت بها تخوم
 فلسطين الشمالية المتواصلة بالأراضي اللبنانية والسورية في بداية عهدي الانتداب
 البريطاني والانتداب الفرنسي، وهو التواصل الذي حدا بعض الأحزاب (مثل الاستقلال)
 على تسمية فلسطين سورية الجنوبية في حينه - وذلك قبل أن تتراجع هذه السيولة
 وتنحسر لمصلحة الدولة الكولونيالية المبنية على بلورة مفهوم المواطنة الجديدة

الإقليمية وقوانينها الاستثنائية التي فصلت فلسطين عن الجنوب اللبناني، وأنهت وجود بلاد الشام التي كانت تشكل وحدة إقليمية وثقافية مشتركة.

كما تميز هذا الانفصام بتكوين نظام الحكم للدولة الكولونيالية بجهازه العسكري والبيروقراطي، ونظامه القانوني الجديد. وشرعت سلطة الانتداب داخل كل قطاع من هذه الدولة في استحداث تعيينات بيروقراطية تهدف إلى الموازنة بين تمثيل السكان الفلسطينيين المحليين والسكان اليهود المهاجرين. وبينما كان التمثيل الفلسطيني المحلي فردياً ومباشراً ومبنياً على اعتبارات وجاهية أو إقليمية أو مذهبية، كان التمثيل اليهودي جماعياً تفاوضت سلطة الانتداب بشأن تفصيلاته مع الأجهزة الصهيونية السائدة حينذاك: الوكالة اليهودية، واللجنة التنفيذية الصهيونية. وفي الفترة التكوينية للانتداب حين تم إنشاء الإدارة المدنية سنة 1920 كان التمثيل اليهودي يتجاوز كثيراً نصيب السكان اليهود في فلسطين والبالغ 12٪ من السكان. يقول المؤرخ الإسرائيلي توم سيغف في هذا المجال: "برز تعيين اليهود الفلسطينيين في مناصب قيادية واضحة خلال إدارة هيربرت صامويل [المنسوب السامي الأول]. وقد احتج حينذاك مدير الأمن العام في فلسطين، الكولونيل بيرسي براملي، على أن اليهود المحليين احتلوا جميع المراكز القيادية في السلطة بالاشتراك مع الصهايين البريطانيين. وفي الواقع - كتب براملي - أن حكومة صامويل كانت عملياً حكومة صهيونية."⁽⁴⁵⁾

ولم يكن واصف جوهرية شاهد عيان على هذه المرحلة الحرجة فقط، بل شارك مشاركة فعالة أيضاً في الطاقم الإداري للدولة الجديدة. في البداية عين في منصب مهم في قسم التحريات (ديوان الموظفين)، وفي سنة 1919 انتقل إلى دائرة الأراضي حيث أُسند إليه منصب "مدير مالية". وكان من مهمات الطاقم الذي عمل معه تكملة تقنين وتخصيص نظام ملكية الأراضي الفلسطيني الذي شرعت فيه السلطات العثمانية سنة 1858. وتشكل مذكراته سجلاً غنياً ومفصلاً لهذا التحول. ففي صيف سنة 1920 سجل المؤلف هذه الملاحظة: "إن نواة الإدارة المدنية الجديدة مكونة من رؤساء قطاعات الأمن، والتعليم، والمالية والجمارك، والعدلية والزراعة - وجميعهم من الإنكليز. أما رؤساء دوائر الهجرة والجوازات وإدارة الأراضي فهم مزيج من الإنكليز واليهود. المستر نورمان بنتويش، وهو صهيوني، عين بمنصب المستشار القضائي للحكومة. هل هذه هي بداية تنفيذ وعد بلفور في فلسطين؟"⁽⁴⁶⁾

استمر عمل واصف في قسم المالية في إدارة الأراضي مدة فاقت العقدين من الزمن، وكان من زملائه في الدائرة سامي هداوي وإسطفان إسطفان اللذان اشتهرا

لاحقاً بكتاباتها عن الفترة الانتدابية. وتوفر لنا هذه المذكرات رؤية واضحة للدور الذي أدته قوانين الأراضي المستحدثة في تسهيل نقل حيازة الأراضي المدنية والزراعية إلى اليهود، إذ شملت إلغاء ضريبتى العشر والويركو.⁽⁴⁷⁾ وهما ضريبتان عثمانيتان متعلقتان بالأراضي كان الهدف منهما تحصيل دخل للدولة المركزية من أصحاب الأطيان من دون اعتبار لنوعية الأرض أو إنتاجيتها. وهدف إلغاؤهما إلى إنشاء ضريبة فنوية تأخذ في الاعتبار موقع الأرض ونوع التربة. أخيراً قامت دائرة الأراضي بتسريع تسوية



واصف جوهرية سنة 1921.

تسجيل الأراضي، وهي عملية هدفت إلى المسح الشامل للأراضي وتصنيفها وتحديد ملكياتها بدقة، وذلك لتقنين وتحديث وتبسيط آليات نقل الملكيات في سجل الأراضي الفلسطينية (الطابو).

ومن المفارقة أن سامي هداوي وواصف جوهرية، صاحبي السجل الوطني الحافل، أصبحا أداة غير واعية في عملية استلاب الأراضي هذه. يصف جوهرية هذه الفترة بأسلوبه المشبع بالسخرية وامتعة الحياة: المقاومة بالحيلة، والتخريب البيروقراطي، ونشر أجواء احتفالية وصاخبة، خلال عمله في إحدى أهم الدوائر الحكومية. وحين انغمس زملاؤه في دائرة المالية في إدخال حسابات ملكية الأراضي وضرائبها تحت إدارة كيث - روش، لحن وواصف الطقطوقة التالية هازئاً بالنظام الضرائبي:

طقطوقة الكرسنة والفول⁽⁴⁸⁾

واللي أدهى من كل ده	ترتيب القواعد
والله تجنن نفضل نحسب ونقول	كرسنة وحنطة وفول
أعشار وويركو على طول	وتحصل وتنزل وتدور لغاية شهر ايلول
وادخل بالاستان وآتي باليومية	من حسابات عام ومفردات شخصية
وواردات وصادرات	من سابقة وحالية

وتحويل العملة المصرية
في الشطب الدكيمات
من حيث وليت

للاهمية الفلسطينية
وتعداد الحيوانات
واحنا صابرين

استطاع هذا النوع من الأغاني والطقايق أن يلقي ضوءاً ساخراً على بيروقراطية الدولة وجهاز موظفيها، وأن يرسم صورة مشعة لبروز شخصية وهوية فلسطينية في هذه الحقبة العتبية. وكانت ملامح الحقبة العريضة تتكون من الخطوط التي رسمناها أعلاه: فراغ قانوني تم ملؤه بقرارات إدارية؛ ثقافة شعبية جديدة احتلت الشارع واحتفلت بزوال الطغيان لكنها واجهت مستقبلاً غير منظور؛ حدود سائبة لم تغلق بعد حافظت على التواصل الثقافي مع بلاد الشام ومصر. وكان العنصر الذي ربط بين هذه العوالم وحافظ على وحدة النسيج الاجتماعي الحس الطاغي بالانتماء المحلي؛ الانتماء إلى الهوية المقدسية في فترة كانت القدس تشكل مركز البلد ذي الحدود المتغيرة، ومرساة الأمان ضد المشاريع الاستعمارية الهادفة إلى تجزئة الوطن، وهي مشاريع دفعت بالفلسطينيين إلى الحنين إلى الحقبة العثمانية قبل أن تجف دماء حقدهم على العهد البائد.

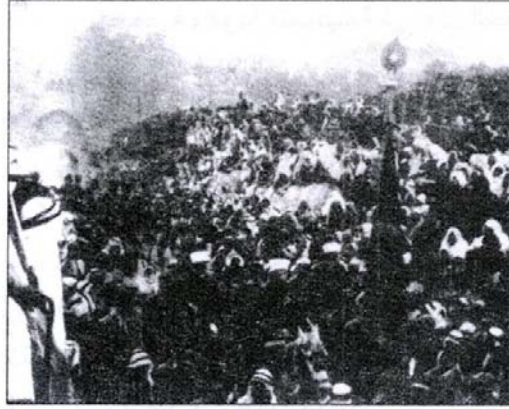
بداية التمرد والنوستالجيا العثمانية

لم يستمر شهر العسل مع سلطات الانتداب البريطاني طويلاً. فقد ظهرت إشارات التملل ضد الحكم الإنكليزي بعد أن قررت الحكومة إجراء التعداد الأول للسكان سنة 1920، وفيه صنفت السكان إلى ثلاث فئات طائفية: مسلمين ومسيحيين ويهود. ورأت القيادة الوطنية في القدس التعداد كأداة للشروع في تنفيذ مشروع الوطن القومي اليهودي، وليس وسيلة للتخطيط الاقتصادي كما أعلنت الحكومة. واتخذت القيادة قراراً بمقاطعة الإحصاء، لكن لم يكتب لهذه المقاطعة النجاح.⁽⁴⁹⁾

عندما جاءت الحكومة البلشفية إلى السلطة ونشرت بنود اتفاقية سايكس - بيكو السرية لتقسيم بلاد الشام بين الحلفاء، بدأت الجماهير العربية بالتحرك. وقد ركز الشارع الفلسطيني على مسألتين: الهجرة اليهودية (التي أصبحت الآن من أهداف السلطة الانتدابية)، ونقل الأراضي إلى مشاريع الاستيطان الصهيوني.

وبعكس الوضع الذي كان سائداً في الفترة العثمانية، تحولت المناسبات الاحتفالية الشعبية والدينية الآن إلى بؤر مواجهة مع السلطة الانتدابية. وكان أهم هذه الاحتفالات في المنطقة الوسطى (إن لم يكن في فلسطين كلها) مسيرة موسم النبي موسى. بدأت هذه المواجهات في ربيع سنة 1919، واستمرت عامين. في هذه الفترة

أخذ الكولونيل ستورز على عاتقه تنظيم هذه الاحتفالات هادفاً من وراء ذلك، بحسب تحليل واصف جوهريّة، إلى السيطرة على مسيرة الجماهير كي لا تتحول إلى "أعمال شغب" بلغة السلطة؛ ومن ناحية أخرى إلى استيعاب هذه المسيرة التقليدية ضمن نشاطات الإدارة المدنية الجديدة في فلسطين.



الحاج أمين الحسيني في استقبال موكب النبي موسى - باب الخليل، سنة 1919.

وفي هذا الإطار توافقت رؤية الحاكم العسكري مع مصالح الحاج أمين

الحسيني، النجم الصاعد بين قادة الحركة الوطنية، والذي اعتبر نموذج التاريخي القائد صلاح الدين الأيوبي حين ابتدع مسيرة النبي موسى في نهاية حروب الفرنجة. فالحاكم العسكري ومفتي القدس تواطأ - كل لأهدافه الخاصة - على تنظيم مراسم خروج المسيرة من القدس.

وهكذا تحولت احتفالات النبي موسى، التي كانت تشكل أحد أهم الاحتفالات الشعبية في الفترة العثمانية، إلى عيد رسمي بوصاية انتدابية. أمّا الحاج أمين فقد ساهم بدور فعال في "تأميم" هذه الاحتفالات بإشراف مكتب المفتي.⁽⁵⁰⁾ وفي السياق نفسه، بادرت السلطات الانتدابية أيضاً إلى تنظيم احتفالات الجمعة العظيمة وسبت النور بإشراف الدولة، وهو خطوة استكملت إعادة ترتيب الاحتفالات الدينية الشعبية بوصاية حكومية، في الفترة نفسها التي بدأ المجتمع فيها بالتوجه نحو رؤية قومية علمانية في تنظيم نفسه.

أمّا ستورز، المستشرق الذي أدى دوراً مهماً في إحياء هذا التقليد، فقد خلفه السير إدوارد كيث - روش، الحاكم العسكري المعادي للعرب. وقد كان واصف جوهريّة عرف الحاكمين عن قرب بحكم وظيفته في الحكومة، وقارن بين شخصيتيهما وأسلوبيهما في إدارة شؤون السلطة لمصلحة المثقف والسياسي المحنك رونالد ستورز. لكن واصف كان يعي أيضاً دور ستورز في استغلال التراث الديني للوصول إلى أهدافه السياسية، كما يتضح من الوصف التالي للاشتباكات بين جماهير القدس والشرطة البريطانية سنة 1921:

أقام الجيش قوة دفاع هائلة في الثغرة التي فتحت خصيصاً لدخول الإمبراطور الألماني في سور المدينة بجانب المدخل الرئيسي باب الخليل،

وهذه القوة التي عززت من المدافع الثقيلة والدبابات وقوى الجيش المسلح بكامل الأسلحة كان يترأسها صورياً حاكم القدس العسكري السير رونالد ستورز، ركباً على جواده وبألبسته العسكرية. لمانا وضعت هذه القوة على الأخص في ذلك المكان من المدينة يا ترى!!؟

وضعت خصيصاً للوقوف في وجه الموكب العظيم وأشواس جبل الخليل أو جبل النار كما يعرف ليومنا هذا، ولكي لا يسير في الطريق المؤدية إلى الحرم الشريف خوفاً من التحرش باليهود مرة ثانية.

وصل الموكب في صباح الأحد إلى الجسر الواقع ما بين بركة السلطان ووادي الربابة وهناك تمهل وبدأ يتمختر دقه دقه والشباب تلعب بالسيوف والشيوخ تنشد الأناشيد الدينية وفريق يرقص بحلقات في الشارع وينشد الأهازيج الوطنية وكانت الأعلام لكل قرية ومنطقة من جبل الخليل مرفوعة والخيول العربية تسير على نغمات الطبول والنايات منظر خلاب إلى أن وصل في الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم المنشود وفي هذه العقبه التي تصل ما بين بركة السلطان إلى طرف سور مدخل باب الخليل أخذ وقتاً أكثر من ست ساعات وقد ذاق الجيش البريطاني والبوليس والقائمون بالمحافظة على الأمن والمحيطون بالموكب العظيم ذاقوا ألوان العذاب والعطش وكان الطقس صدفه يميل إلى الحر على غير عادة مما جعل هذا الحشد يزيد من التحمس والقوة وكان المتفرجون من ضفتي الطريق ومن شرفات المنازل والمقاهي والمخازن يلاحظون بأن هذا الموكب وفي عيونه تعطش للدم.. لا بد له من عمل شيء على غفلة.

وقد صدق تنبؤ المتفرجين وكنت أنا واحداً منهم فعندما وصل أول الموكب قمة باب الخليل المعروفة بالقدس التلة ووجد أن باب الخليل الرئيس مغلق وكذلك الثغرة المعروفة في السور منيعة بواسطة المدافع والدبابات وأفراد الجيش المدجج بأسلحته الكاملة وبموجب إشارة الحاكم السير رونالد ستورز أخذ الموكب الأول طريقه إلى الغرب متجهاً إلى شارع يافا حتى مشى ما يقرب من نصف الموكب.. وفي أقل من لمحة البصر وبقوة فائقة عاد نصف هذا الموكب للخلف وقابل النصف المتأخر منه بعد وانشى إلى ثغرة السور مهاجماً قوى بريطانيا ومتحدياً المدافع والرشاشات والدبابات وكل قوى الأمان وكان بالفعل مشهداً مهيباً لن أنساه ما دمت حياً.

ولكن هل تدري ماذا عمل السير رونالد ستورز خوفاً على كسر شوكة
بريطانيا تلافياً للأمر وهنا الدهاء فقد قلب وأظهر نفسه وكأنه عربي قحطاني..
وبداً يرحب باللغة العربية في هذا الموكب ترحيباً ليس له مثيل فيقول أهلاً..
أهلاً.. بالأبطال.. نعم تفضلوا ومعكم الحق بالمحافظة على العادة بأن تسيروا
داخل السور إلى الحرم هيا تفضلوا.. وهكذا أنقذ الموقف وتجنب حقن الدماء
وكسب أرواح الجيوش البريطانية وهكذا لم يتعد الموكب على أحد عندما رأى
أن ستورز يرحب به وهذا ما كان يبغيه بأن يسير داخل السور وليس شارع
يافا ويعرج على باب العمود وربما باب الساهرة ويدخل الحرم من باب
الأسباط. (51)

بخلاف ستورز كان الحاكم كيث - روش يفتقر إلى سلاسة الكولونيل ستورز وحنكته
السياسية. وقد وصف الفلسطينيون بأنهم "شعب كسول بطبيعته، قد يحلوك العيش في
أوساطه لكن سراويلهم الطويلة تخفي في طياتها خطايا كثيرة." (52) لكن من الواضح
أنه حين أتى إلى سدة الحكم سنة 1926 لم يعد في الإمكان أن يتحكم في المواجهات
بين الحركة الوطنية العربية والحركة الصهيونية بالمنطق الدبلوماسي نفسه الذي
استعمله ستورز.

وعلى الرغم من الصبغة العلمانية للحركة الوطنية الفلسطينية كما انعكست في
البرامج السياسية لأحزابها الرئيسية (حزب الاستقلال، والحزب العربي الفلسطيني،
وحزب الدفاع، والحزب الشيوعي)، وفي الرؤية الأيديولوجية لزعمائها (ربما باستثناء
حركة عز الدين القسام في شمال فلسطين)، فإن الشعور الديني بدأ ينغل في لغتها
ومفرداتها. يتضح ذلك جراء الاستخدام المتزايد للطقوس والشعائر الدينية في التعبئة
السياسية، كما يتضح جراء الأحداث التي فجرت الاشتباكات بين العرب واليهود في
تلك الفترة، مثل أحداث حائط البراق والحرم الإبراهيمي، وكان الشعار الذي رددته
الجماهير في تلك المناسبات "سيف الدين الحاج أمين!!".

اللافت للنظر في الخطاب السياسي في بداية عهد الانتداب أيضاً كان السرعة التي
استعاد الشارع بها حنينه النوستالجي إلى الحقبة العثمانية، بعد فترة قصيرة من
الاحتفاء "بنهاية عهد الطغيان". وقد شملت النوستالجيا الحنين إلى رموز طورانية
معادية للعرب، مثل شخصية مصطفى كمال أتاتورك. واشتهرت في تلك الفترة أغنية
"الفؤاد مخلوق لحبك" من تلحين وأداء زكي مراد (والد المغنية المشهورة ليلي مراد)،
وقد غناها في القدس أول مرة سنة 1921، ثم انتشرت في أنحاء فلسطين كافة:

الفؤاد مخلوق لحبك

والعيون على شان تراك الفؤاد مخلوق لحبك
والنفوس تحيا بقربك والملوك تطلب رضاك
اشفي صبك من لماك راعي ريق قلبك

دور

والقمر محسوب ضياك الجمال منسوب لشكلك
مين يطول في الملك وصلك وانت في باهي علاك
مين يليق لك في سماك مين يماثلك مين يعادللك

ويبدو أن هذه الأغنية كان نظمها أصلاً الشاعر إبراهيم القباني في مدح الملك فؤاد الأول، إلا أنها سرعان ما انتشرت في سورية وفلسطين، ونسبت إلى القائد أتاتورك احتفالاً بانتصاراته على جيوش الحلفاء في الأناضول. ولاقت أسطوانة "الفؤاد مخلوق لحبك" رواجاً واسع الانتشار في العشرينيات إذ كان الطلب عليها كثيراً، في محلات أبو شنب للموسيقى، المستورد الرئيسي للأسطوانات المصرية والعربية، وذلك عندما بدأ الفلسطينيون يشعرون بأنهم خدعوا بأهداف الحكم البريطاني.⁽⁵³⁾

غياب الحميمية في الحيز العام الجديد

برزت خلال الحرب العظمى أنماط وممارسات اجتماعية جديدة في الحياة المدنية، وتبلورت في فترة الانتداب. في البداية، تضافرت المجاعة والأوبئة والنفي الجماعي على إحداث تغييرات جذرية في النسيج الاجتماعي لعدة مراكز حضرية. في القدس تحديداً ظهرت فئات جديدة خارج سور البلدة القديمة احتضنت هذه القيم الجديدة. وساهم قطاع الدولة في ظهور تجمعات جديدة من الموظفين، وفي استثمارات القطاع العام، الأمر الذي أدى إلى تفعيل ونمو شرائح أخرى من الطبقة الوسطى في المناطق الساحلية أيضاً.

في القدس برزت في الأحياء المحيطة سمات الثقافة الجديدة: التعليم العلماني، والمقاهي، والنوادي الاجتماعية والأدبية، وأماكن الترفيه التي عكست نمو الأذواق البورجوازية الجديدة. ونستطيع أن نستشف من الكتابات الخاصة في هذه الفترة، من مذكرات ويومييات، ظهور أنماط من التعابير الفردية والانعتاق من الروابط العائلية والمذهبية. وكان التخطيط المدني في الفترة الانتدابية، على أيدي المهندسين المعماريين ماكلين وريتشموند وغيديز وآشبي، وعلى أيدي معماريين فلسطينيين من أمثال جورج الشبر، ساهم مساهمة أساسية في بلورة هذه التحولات في السيكولوجيا

الحضرية. نراه مثلاً في تخطيط الجنائن المحيطة، الذي تبناه تشارلز آشبي، في الحد الفاصل بين البلدة القديمة والأحياء الجديدة، ووجود "مسارات مميزة تهدف إلى إثارة العواطف وإحياءات ذهنية متضاربة." ويقول غيتلر إن هذه الهندسة المشهية خطت عن قصد لتستحضر في أذهان الزائر "شعوراً دينياً وعاطفياً عن المدينة وأسوارها، مبنياً على تراكم قرون من التاريخ المشحون." وكما هو الحال في تصميم الحدائق الإنكليزية، "تم وضع المقاعد الخشبية في أماكن استراتيجية لتعزيز هذا الشعور العاطفي وتقويته."⁽⁵⁴⁾ لكن إلى أي مدى نجح آشبي ورفاقه في الوصول إلى هذا الهدف بتطبيق تصاميمهم المعمارية، وفي الجمع بين الإثارة العاطفية واستحداث حيز من الخصوصية في التجربة الحياتية لأهل المدينة؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال، إلا أنه يمكن أن نرى أثره بطريقة غير مباشرة في الكتابة الذاتية لتلك الفترة.

في مذكرات واصف جوهريّة، كما هو الحال في معظم السير الذاتية العربية المعاصرة، تظهر لنا مفارقة جديدة. فهذه المذكرات مفعمة بالروح الفردية الانعناقية، لكنها تعاني في الوقت نفسه جراء غياب الحس الحميمي. قد يبدو للقارئ أن هناك تناقضاً في هذا التشخيص، وخصوصاً إذا راجعنا الكم الهائل من تفصيلات الحياة الشخصية في المذكرات، ونزعتها إلى البوح بما هو عادة مكتوم. وللمذكرات الجوهريّة قيمة خاصة ومميزة لأنها تكشف وتهزأ وتحتفل في الوقت نفسه بمجموعة من الممارسات الاجتماعية، منها ما هو عادي وروتيني، ومنها ما هو مستتر وغير مباح به. البوح إذاً هو السر في قيمة المذكرات، لكنه على الرغم من ذلك بوح غير حميمي. نرى المذكرات تركز على الجانب الخفي من الحياة الخاصة لوجهاء القدس وأعيانها، وعلى سلوكيات النخبتين العثمانية والبريطانية من عسكر وسياسيين، وعلى فضائح وبطولات الناس العاديين التي ولد وكبر واصف جوهريّة في أحضانها. وهي تقلب العادي والروتيني إلى مشهد عجائبي، وتسمح لنا برؤيته بأعين جديدة، لكنها في النهاية تقف عند حافة البوح ولا تتعداها لتتجاوز الحاجز النفسي الذي يسمح بالمشاركة الحميمية للذات.

قد لا يكون هذا الحكم مستغرباً إذا افترضنا أن الكم الأعظم من هذه المذكرات مكون من تسجيلات سردية وانطباعية المستهدف منها - في الغالب - جمهور قارئ محكوم بمفاهيم شرف العائلة وسمعتها. وعلى الرغم من ذلك هناك استثناءات مهمة لهذا التقويم لمجمل الأدب السيري والتراجم العربية الحديثة. من أهم هذه الاستثناءات السيرة الذاتية لأحمد فارس الشدياق، "الساق على الساق في ما هو الفارياق"، المنشورة في باريس سنة 1855.⁽⁵⁵⁾ نستذكر هنا حدثين في رواية الشدياق التي يسردها بضمير الغائب والمصبوغة بالحميمية المفرطة: الأول يتعلق بتجربته المحرجة

والمضحكة في ليلة دخلته على عروسه القبطية وعلاقته بأهلها، والثاني يتعلق بمصارحة الذات حين اكتشف خيانة زوجته له بعد عامين في فاليما مع خادمه المالطي - وهي مصارحة فريدة في نوعها في الأدب العربي إجمالاً.⁽⁵⁶⁾

نموذج آخر لهذا الاستثناء نجده في الرسائل المتبادلة بين خليل السكاكيني ومعشوقته (ولاحقاً زوجته) سلطنة عبده. وهي نصوص مشبعة بالعتاب والشعور بالذنب والعواطف غير المتبادلة.⁽⁵⁷⁾ كما نجده في ذلك الجزء من مذكرات الشيخ عمر الصالح البرغوثي حين حاول، من دون نجاح، أن يقنع زوجته المنعزلة بأن تصبح رفيقته وجليسته في الأماكن العامة.⁽⁵⁸⁾ وفي الأدب الفلسطيني المعاصر نجده أيضاً في ذكريات طفولة الشاعرة فدوى طوقان، وفي وصفها الصريح للظلم الذي تعرضت له من جانب والديها وإخوتها. ففي سيرتها النابلسية، "رحلة جبلية"، حطمت فدوى المحرمات التي تتعلق بسمعة والديها المتوفين في حديثها المفتوح عن نشأتها المعذبة في كنفهما، وعن تمرداها المبكر كفتاة مقموعة ومحبوسة بين جدر منزلها. لكن هذه الحالات تشكل كلها نصوصاً فريدة للإفصاح الحميمي عن الذات، وهي في مجملها نقطة في بحر من الكتمان.

في حالة المذكرات الجوهرية يظهر هذا الغياب للحس الحميمي لافتاً للنظر على

خلفية العدد الكثير من الروايات الفضائية التي يتعرض لها الكاتب في حياة وجهاء القدس الخاصة. فهو يتعرض بالتفصيل للحياة الصاخبة في شققهم الخاصة ("دور العازبين")، ولتحديدهم الأخلاق العامة، ولسير عشيقاتهم، ولانغماسهم في الملذات، ولدوره شخصياً في حياة هذه الشخصيات. إلا أن هذا الإفصاح عن دقائق الحياة الداخلية في حياته وحياة صحبه يرد إلينا كله بشكل قصصي يبدو أن القصد منه سرد ملاحظات اجتماعية عن أنماط الحياة المتغيرة في فترة حاسمة من تاريخ القدس. أي أن الشكل الغالب فيها هو المشهدي لا الذاتي. وهي أحداث تجري في الدرجة الأولى



فكتوريا سعد سنة 1955 - بعد

للآخرين، بينما هو - الراوي - يظهر كشاهد عيان عليها. أمّا هو وعائلته فهما في الغالب معصومين من مبضع الجراح النقدي.



واصف جوهرية في أريحا بعد النكبة والهجرة من القدس.

أحياناً يتنازل الكاتب عن هذه المسافة المفروضة على عائلته عندما يتكلم بشيء من التفصيل عن أصول عائلة أمه وأبيه في البلدة القديمة، إلا إنه لا يستكمل هذه الصورة إلا بصورة سطحية عندما يأتي إلى ذكر حياة إخوته (وخصوصاً أخواته) اليومية. أمّا

زوجته وعلاقته بها ودائرة علاقاته الخصوصية فتبقى غامضة. ثم فجأة يتخلى واصف عن هذا الحذر في المجلد الثاني من مذكراته، خلال الأعوام الأولى للحكم البريطاني، عندما يعرض بحميمية بالغة قصة فكتوريا: وقوعه في الغرام، ثم خطوبته وزواجه بها. ولهذا الإفصاح الحميمي أهمية بالغة لأنه يظهر فجأة بشكل استثنائي في بقية السرد، ولأنه يوفر لنا مادة خصبة عن تجربته في الحب الرومانسي والزواج، ولأنه أيضاً يدخل القارئ في عالم ما هو عادة مكتوم وغير مفصح عنه.

قابل واصف فكتوريا أول مرة في أريحا خلال الحرب عندما كان ضابطاً في البحرية العثمانية. كان أبوها صليبا سعد في الأصل من بير زيت، لكنه انتقل إلى أريحا حيث أنشأ وأدار فندق الجلجال عند مدخل المدينة. اعتقلت السلطات العثمانية صليبا ونفته إلى أنقرة خلال الحرب لأسباب غير معروفة (على الأقل لا يخبرنا واصف عن هذه الأسباب في مذكراته). كانت النتيجة أن استلمت ابنته الشابة فكتوريا الفندق وأدارته بنجاح باهر حتى نهاية الحرب. وفي بداية الحكم العسكري أصبح الفندق وباره مكاناً مفضلاً لارتياح الضباط الإنكليز الذين اعتادوا تسمية صاحبه بـ "فكتوريا أريحا" (فكتوريا جيريكو). وكان كبار قادة الجيش، مثل الجنرال بولز والجنرال موني والكولونيل ستورز، من زبائن الفندق الدائمين.⁽⁵⁹⁾

في هذا السياق نعلم من واصف قصة "تبني" فكتوريا من جانب البطريك الأورثوذكسي في القدس، بعد أن أقنع عائلتها بالتنازل عنها، وقصة صراعه مع البطريك ليقنعه بأن يبارك خطوبته على فكتوريا، وقصة مغامراته خلال شهر العسل في القاهرة.⁽⁶⁰⁾ تعود هذه المصارحات الحميمية مرة أخرى إلى الظهور في نهاية المذكرات عندما يصل الكاتب إلى شيخوخته ويشعر بالوحدة القاتلة، فيفكر في الزواج مرة ثانية كي يعيد شيئاً من الاستقرار إلى حياته بعد وفاة فكتوريا. هذه الأحداث أبرزت شخصية واصف جوهرية ككاتب ساخر من الطراز الأول. بعد جنازة زوجته فكتوريا مباشرة كان واصف يستقبل المعزين في بيت ابنته يسرى في بيروت. يظهر

رجل لم يلحظه واصف من قبل أخذ يتلو خطاب رثاء طويلاً يعدد فيه مناقب المرحومة بعاطفة جياشة، الأمر الذي دفع واصف إلى البكاء والنحيب وبعد ذلك ينتقل الرجل فجأة إلى مدح مناقب عائلتها وزوجها بطريقة عكست معرفة حميمة بالعائلة. ثم يدرك واصف أن الرجل من طائفة ممتهني حضور الجنائز الذين ينتقلون من مناحة إلى أخرى بهدف الارتزاق. يصحو واصف من أحزانه مؤقتاً، ويمد يده إلى الرجل ببضع ليرات: "أرجوك يا أخي، قطعت قلبي!" أما الرجل فينتابه شيء من الارتباك ويصر على أن يحتفظ واصف بالرثاء المكتوب: "لا يا أخي - هذا شعرك وأكد ستحتاجه في جولتك القادمة."

مكان اللقاء الحميمي الثاني هو أريحا مرة أخرى، وحرب تنتهي بكارثة جديدة مع فارق مهم؛ فالحرب العظمى سنة 1917 بتوقعات متفائلة عن مستقبل مشرق فلسطين وبلاد الشام. أما الحرب الثالثة، حرب فلسطين سنة 1948، فقد جلبت معها كارثة النفي والتشرد. أصبحت أريحا مكان اللجوء الكبير للشعب مهزوم، إذ نزح مئات الآلاف من سكان السهول الساحلية إلى وادي الأردن. في هذا المنعطف يظهر واصف كأنه يحاول إعادة بناء حياته الشخصية في إطار المأساة الجماعية لفلسطين. يتسم أسلوبه بالمصارحة الجريئة مع القارئ، وكأنه يسعى لمشاركته في الحدث. والمناسبة هنا هي زواجه الثاني من أرملة عزم على ربط حياته بحياتها. هذا الحدث أيضاً فريد في إطار المذكرات، لا لاحتوائه على قدر كبير من الحميمية في التعبير عن عواطفه فحسب، بل أيضاً لأنه يعكس مصارحة صادقة مع الذات لرجل تجاوز العقد السادس من عمره، ووقع مرة أخرى في الغرام. وبالعكس بقية المذكرات يوجه المؤلف سلاحه الساخر هذه المرة ضد نفسه؛ يبدأ المحاولة في الزواج الثاني بللممة أطراف شجاعته، ويتوجه إلى بيت الأرملة التي وقع في غرامها، فيفاجأ بالرفض الحازم والمؤدب من جانبها، وتذكره - بحسب الرواية - بأن ثلاثة خطّاب أهم منه كثيراً في الجاه والمال قد تقدموا إليها قبله بطلب يدها.⁽⁶¹⁾ ينهار واصف من هول الصدمة، ويتجنب لفترة طويلة المرور بطريق عين السلطان - مشهد خيبة أمله.⁽⁶²⁾ وفجأة يتخلى الكاتب عن المناعة الساخرة التي كان يتستر خلفها، ويظهر أمامنا - عن إرادة - كإنسان هش حساس، لكن صاحب كرامة. في النهاية يختم السرد بحوار نوستالجي مع الشيوعي المنفي والمناضل المقدسي العجوز نجاتي صدقي، وهو نقيضه تقريباً في معظم جوانب شخصيته، وهو يراجع معه مسيرته الطويلة في الحياة كجندي، ومتسكع، وموظف دولة، وكاتب ساخر، وموسيقار، وشاهد على عصره.⁽⁶³⁾

المصادر

- (1) واصف جوهريّة، "القدس العثمانية في المذكرات الجوهريّة: الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهريّة 1904 - 1917"، تحرير وتقديم: سليم تمّاري وعصام نصّار (القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2001)، المقدمة، ص XXI.
- (2) عادل مناع، "تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني، 1700 - 1918" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2003)، ص 243 - 244.
- (3) المصدر نفسه، ص 243 - 249.
- (4) المصدر نفسه، ص 247. يلاحظ مناع أيضاً الاختلاف الواضح في تقويم الدعم الفلسطيني في تلك الفترة للتيارات المعادية للعثمانيين، مثلاً بين بيان نويهض الحوت والمؤرخ الإسرائيلي يهوشوع بورات، إذ ترى بيان الحوت أن الدعم الفلسطيني للاتجاهات العروبية كان أكبر من الوزن السكاني لفلسطين في بلاد الشام (المصدر نفسه، ص 248). ويبدو أن مرجع هذا الاختلاف يعود جزئياً إلى الفترة الزمنية المختلفة التي يعالجها هذان المؤرخان.
- (5) Ruth Kark, *Jerusalem Neighborhoods: Planning and by-Laws, 1855-1930* (Jerusalem: Hebrew University of Jerusalem, Magnes Press, 1991), pp. 58-59.
- (6) Rassem Khamaisi & Rami Nasrallah, *The Jerusalem Urban Fabric: Demography, Infrastructure and Institutions* (Jerusalem: International Peace and Co-operation Centre, 2003), p. 298.
- (7) Hala Fattah, "Planning, Building and Populating Jerusalem in the Ottoman Period," (www.jerusalemities.org/jerusalem/ottoman/7.htm)
- (8) يادين رومان، "حائط القدس"، مجلة إيرز، شباط/فبراير 2000.
- (9) ألكسندر شولش، "تحولات جذرية في فلسطين، 1856 - 1882" (عمان: منشورات الجامعة الأردنية، 1988)، ص 148.
- (10) المصدر نفسه.
- (11) Kark, op. cit., p. 59.
- (12) Khamaisi & Nasrallah, op. cit., p. 296.
- (13) Ronald Storrs, *Orientalisms* (London: I. Nicholson & Watson Ltd., 1937), p. 322.
- (14) Ibid., p. 323.
- (15) Ibid.
- (16) رومان، مصدر سبق ذكره.
- (17) Storrs, op. cit., pp. 323-326.
- (18) Inbal Ben-Asher Gitler, "C.R. Ashbee's Jerusalem Years: Arts and Crafts, Orientalism and British Regionalism," *Assaph*, vol. 5, p. 31.
- (19) Storrs, op. cit., p. 326.
- (20) Gitler, op. cit., pp. 45-46.
- (21) Ibid., p. 41.
- (22) واصف جوهريّة، "مخطوطة المجلد الثاني من المذكرات الجوهريّة"، وسنشير إليها من هنا فصاعداً بـ "المخطوطة الجوهريّة"، ص 262.
- (23) المصدر نفسه، ص 49.
- (24) المصدر نفسه، ص 50. بعد 30 عاماً من هذه الحادثة زار البروفسور مايزل، عالم الآثار، منزل واصف جوهريّة وكتب بإعجاب عن هذا النموذج الذي حافظ عليه واصف في المجموعة الجوهريّة. ظهرت المقالة في: *Palestine Post*, 10 August 1945.
- (25) "المخطوطة الجوهريّة"، مصدر سبق ذكره، ص 49.
- (26) مناع، مصدر سبق ذكره، ص 259.

- Izzat Tannous, *The Palestinians: A Documented Eyewitness History of Palestine under British Mandate* (London: Igt Co., 1988), p. 35.
- (28) مناع، مصدر سبق ذكره، ص 259:
Tannous, op. cit., p. 36.
- (29) "المخطوطة الجوهريّة"، مصدر سبق ذكره، ص 66.
- (30) المصدر نفسه.
- (31) المصدر نفسه.
- (32) عمر صالح البرغوثي، "المراحل" (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001)، ص 192 - 193.
- (33) "المخطوطة الجوهريّة"، مصدر سبق ذكره، ص 23.
- (34) المصدر نفسه، ص 147.
- (35) بشأن المزيد من وصف هذه المقاهي في الفترتين العثمانية والانتدابية، أنظر: سليم تماري، "مقهى الصعاليك وإمارة البطالة المقدسية"، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 57 (شتاء 2004)، ص 117 - 132.
- (36) "المخطوطة الجوهريّة"، مصدر سبق ذكره، ص 151.
- (37) حنا أبو حنا (إعداد)، "مذكرات نجاتي صدقي" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2001)، ص 196 - 197. أنظر أيضاً: مناع، مصدر سبق ذكره، ص 248.
- (38) بشأن أصول النادي الأدبي في القدس، أنظر: "المخطوطة الجوهريّة"، مصدر سبق ذكره، ص 26، 62، 87.
- (39) المصدر نفسه، ص 26.
- (40) Storrs, op. cit., pp. 372-373.
- نقلًا عن: بيان نويهض الحوت، "القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، 1917 - 1948" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981)، ص 66.
- (41) الحوت، مصدر سبق ذكره، ص 66.
- (42) "المخطوطة الجوهريّة"، مصدر سبق ذكره، ص 91، 92.
- (43) المصدر نفسه، ص 185.
- (44) المصدر نفسه، ص 161.
- (45) Tom Segev, *One Palestine Complete: Jews and Arabs under British Mandate*, Haim Watzman, trans. (London: Little Brown & Co., 2000), pp. 167-168.
- (46) "المخطوطة الجوهريّة"، مصدر سبق ذكره، ص 182.
- (47) "الويركو" كانت في الأصل ضريبة حكومية تجبى من أراضي الزعامات الإقطاعية (التيمار). وبعد إلغاء نظام الأراضي السباهية تحولت إلى ضريبة حكومية على الأراضي تضاف إلى الأعشار. بشأن تفصيلات الموضوع، أنظر:
- Moses J. Doukhan, "Land Tenure," in Sa'id Himadeh, ed., *Economic Organization of Palestine* (Beirut: American University of Beirut, 1938), pp. 98-99.
- (48) "المخطوطة الجوهريّة"، مصدر سبق ذكره، ص 164.
- (49) يذكر جوهريّة أن وجهات النظر في فلسطين اختلفت في مواقفها من التعداد العام، وأن فخري النشاشيبي، ابن عم راغب، قائد المعارضة لاحقاً، قاد تياراً يدعو فيه السكان إلى مساندة الدعوة إلى التعداد.
- (50) "المخطوطة الجوهريّة"، مصدر سبق ذكره، ص 198 - 199.
- (51) المصدر نفسه، ص 158.
- (52) Segev, op. cit., p. 168.
- (53) "المخطوطة الجوهريّة"، مصدر سبق ذكره، ص 84.
- (54) Gitler, op. cit., p. 39.

- (55) عماد الصلح (تحرير)، "اعترافات الشدياق في كتاب الساق على الساق" (بيروت، 1982).
- (56) المصدر نفسه، ص 272 - 274.
- (57) خليل السكاكيني، "يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات"، الكتاب الأول (رام الله: مركز خليل السكاكيني الثقافي؛ القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2003).
- (58) البرغوثي، مصدر سبق ذكره، ص 151.
- (59) فدوى طوقان، "رحلة صعبة، رحلة جبلية" (رام الله: دار الشروق، 1999)، ص 18 - 22.
- (60) "المخطوطة الجهرية"، مصدر سبق ذكره، ص 102.
- (61) المصدر نفسه، ص 360.
- (62) المصدر نفسه، ص 364 - 371.
- (63) المصدر نفسه، ص 375. كان نجاتي صدقي كتب في السجل الذهبي الخاص بالمجموعة الجهرية عندما زار متحف الجهرية في القدس بتاريخ 1947/8/9 هذه الكلمة: "وواقع أن الشخص الذي يزور القدس، ولا يزور متحف الأستاذ جهرية، مثله مثل ذلك الشخص الذي يزور مجاهل إفريقيا، ويرى فيها جميع الحيوانات إلا الفيل..!"

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>